مدار الوطن
٤١٣

وهل يصوم القلب؟!

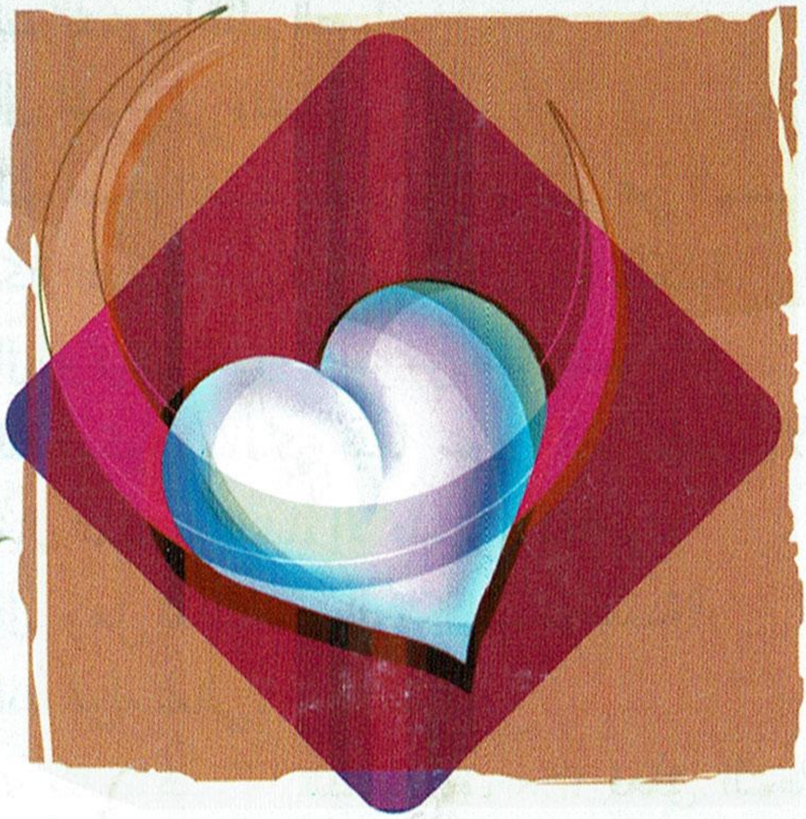

إعداد
القسم العلمي بمدار الوطن

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب
الرياض - ص.ب ٣٣١٠ - هاتف ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس ٤٧٢٣٩٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

وهل يصوم القلب؟

الحمد لله، الصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

سألته: ما الصيام عندك؟

قال: كفُّ البطن عن الطعام والشراب، والفرج عن قضاء الشهوة.

قلت: هذا أهون الصيام عند السلف.

قال: فكفُّ السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عند الآثام.

قلت: ونسيتَ القلب؟

قال: وهل يصوم القلب؟

قلت: يصوم أعظم الصيام.

قال: اشرح لي ذلك.

قلت: صيام القلب يكون بالإعراض عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وبكفّه عما سوى الله بالكلية.

قال: وكيف يكون الفطر من هذا الصوم؟

قلت: يكون بالفكر فيما سوى الله والدار الآخرة، وانشغال القلب بالدنيا، إلا دنيا تراد للآخرة.

قال: وهل لذلك أثر من الكتاب أو السنة؟

قلت: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]؛ فعلّق النجاة يوم القيامة على سلامة القلوب، وإذا سلمت القلوب سلمت الجوارح، واستقامت على طاعة الله، واجتنبت معصيته ونواهيه.

وقال النبيّ ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا**

صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهي القلب» (متفق عليه).

فأساس الصلاح والفساد هو صلاح القلوب وفسادها، ولذلك كان إصلاح القلوب وتهذيبها وتطهيرها من أعظم أعمال الطاعة التي غفل عنها كثير من الناس.

قال أبو تراب النخشبي: ليس من العبادات شيء أنفع من إصلاح خواطر القلوب.

وقال أحمد بن خضرويه: القلوب أوعية، فإذا امتلأت من الحق، أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل، أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح.

صفة القلب الصائم

والقلب الصائم: قلب متحرر من حبّ الدنيا والتعلق بشهواتها وملذاتها، طلباً للنعيم الأعلى والراحة الدائمة.

قالت رابعة: شغلوا قلوبهم بحبّ الدنيا عن الله عز وجلّ، ولو تركوها، لجالت في الملكوت، ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد.

والقلب الصائم: قلب مشغول بالفكر في الآخرة والقدوم على الله عز وجل.

قال حادث بن أسد: بليةُ العبد تعطيلُ القلب عن فكره في الآخرة، حينئذ تحدث الغفلة في القلب.

والقلب الصائمً: قلب سالم من الأحقاد والضغائن، لا يضمر لأحد من المسلمين غلاً ولا شراً ولا حسداً، بل يعفو ويصفّح ويغفر ويتسامح، ويحتمل أذى الناس وجهلهم.

وقد سئل إبراهيم بن الحسن عن سلامة القلب فقال: «العزلة[1] والصمت، وترك استماع خوض الناس، ولا يعقد القلب على ذنب، ويهب لمن ظلمه حقَّه.

والقلب الصائم: قلبٌ ساكنٌ مخبتٌ متواضعٌ ليس فيه شيء من الكبر والغرور والعلو في الأرض.

قال النبي ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»** (رواه مسلم).

والقلب الصائم: قلبٌ مخلصٌ لا يريد غير وجه الله، ولا يطلب إلا رضى الله، ولا يلتذّ بغير محبة الله وذكره وشكره وحسن عبادته.

قال يحيى بن معاذ: النسك هو العناية بالسرائر، وإخراج ما سوى الله عز وجل من القلب.

وقال ضيغم: إن حبَّه تعالى شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره، فليس لهم في الدنيا مع حبّه لذة تداني محبته، ولا يأملون في الآخرة من كرامة، الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم ..

فأين أصحاب هذه القلوب النقية؟

وأين أرباب تلك الهمم العليّة؟

ذهبوا - والله - فهل ترى لهم بقية؟

علاج القلوب

وإذا مرض القلب توجب علاجه ومداواته حتى يعود إلَى حال الصحة والقوة، وعلاج القلوب يكون بأمور منها:

١- ترك الذنوب:

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: **«إن المؤمن إذا**

---

(١) أي العزلة عن الشر وأهله.

أذنب، كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقُل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرانُ الذي ذكر الله عز وجلَّ في كتابه ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]» (رواه الترمذي وقال حسن صحيح).

وقال يحيى بن معاذ: سقم الجسد بالأوجاع، وسقم القلوب بالذنوب، فكما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه، لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب.

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذّل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

٢- رحمة الخلق:

فقد شكا رجل إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين» (رواه أحمد وحسنه الألباني).

وفي رواية قال: «أتحبُّ أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يَلِنْ قلبك، وتدرك حاجتك» (رواه الطبراني).

٣- ذكر الله:

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٣٥].

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد! أشكو إليك قسوة قلبي! قال: أَدْنِه من الذكر.

٤- الدعاء:

فقد كان النبي ﷺ يقول: «اللهم مصرّف القلوب، اصرف قلوبنا على طاعتك» (رواه مسلم).

وكان يقول: «يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك» (رواه الترمذي).

٥- علاجات متفرقة:

سأل رجل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ما دواء قسوة القلب؟ فأمرته بعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وتوقع الموت.

وشكا ذلك رجل إلى مالك بن دينار فقال: أدمن الصيام، فإن وجدتَ قسوةً فأطل القيام، فإن وجدتَ قسوةً فأقلّ الطعام.

وسئل ابن المبارك: ما دواء القلب؟ فقال: قلة الملاقاة.

وقال عبدالله بن خبيق: خلق الله القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات، ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق.

وقال إبراهيم الخواص: دواء القلوب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين[١].

أعياد الصائمين

قال ابن رجب: «من يصوم في الدنيا عما سوى الله، فيحفظ الرأس وما حوى، ويحفظ البطن وما وعى، ويذكر الموت والبلى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا، فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه، وفرحه برؤيته. كما قيل:

أهل الخصوص من الصُوَّام صومُهم
صونُ اللسان عن البهتان والكذب
والعارفون وأهل الأنس صومُهم
صونُ القلوب عن الأغيَار والحُجبِ[٢]

---

(١) المنتقى من ذم الهوى: (ص ٥٢).

(٢) لطائف المعارف: (ص ٢٢٠).